

مجمع الأمثال

4302 - أَلَمْ يَنْزُجَاجَةً عَلَى مَا فِيهَا .

لأن الزجاج جَوْهَرٌ لَا يَنْكُتُ فِيهِ شَيْءٌ لَمَّا فِي جَرَمِهِ مِنَ الضياءِ وَقَدْ تَعَاطَى الْبُلَاغَاءُ وَصَفَ هَذَا الْجَوْهَرَ فَعَبَّرُوا عَنْ مَدْحِهِ وَذَمِّهِ .

فَأَمَّا ذَمُّهُ فَإِنَّ الذَّطَّامَ أَخْرَجَهُ فِي كَلِمَتَيْنِ بِأَوَاجِزٍ لَفْظٍ وَأَتَمَّ مَعْنَى فَقَالَ : يُسْرِعُ إِلَيْهِ الْكَسْرُ وَلَا يَقْبَلُ الْجَدِيرُ .

وَأَمَّا مَدْحُهُ فَإِنَّ سَهْلَ بْنَ هَارُونَ شَهِدَ مَجْلِسًا مِنْ مَجَالِسِ الْمُلُوكِ قَدْ حَضَرَ فِيهِ شَدَّادُ الْحَارِثِيِّ فَأَخَذَ يُعَدِّدُ خِصَالَ طَبَاعِ الذَّهَبِ وَقَدْ قَالَ شَدَادُ : الذَّهَبُ أَبْقَى الْجَوَاهِرِ عَلَى الدَّفْنِ وَأَصْبَرُهَا عَلَى الْمَاءِ وَأَقْلَاهَا نَقْصَانًا عَلَى النَّارِ وَهُوَ أَوْزَنُ مِنْ كُلِّ ذِي وَزْنٍ إِذَا كَانَ فِي مِقْدَارِ شَخْصِهِ وَجَمِيعِ جَوَاهِرِ الْأَرْضِ وَالْفِلَازِ كُلِّهِ إِذَا وَضِعَ عَلَى طَهْرِ الزُّبُقِ فِي إِنَائِهِ طَفَفًا وَلَوْ كَانَ ذَا وَزْنٍ ثَقِيلٍ وَحِجْمٍ عَظِيمٍ وَلَوْ وَضَعَتْ عَلَى الزُّبُقِ قِيرَاطًا [ص 352] مِنَ الذَّهَبِ لَرَسَبَ حَتَّى يَضْرِبَ قَعْرَ الْإِنَاءِ وَلَا يَجُوزُ وَلَا يَصْلُحُ أَنْ تُشَدَّ الْأَسْنَانُ الْمُقْتَلَعَةُ بغيرِهِ وَأَنْ يَوْضَعَ فِي مَكَانِ الْأَنُوفِ الْمُصْطَلِمَةِ سَوَاهٍ وَمِثْلُهُ أَجُودُ الْأُمَيَّالِ وَالْهِنْدُ تَمَرُّهُ فِي الْعَيْنِ بَلَا كَحْلٍ وَلَا ذَرُّورٍ لَصَلَّاحِ طَبْعِهِ وَلِمُوَافَقَةِ جَوْهَرِهِ لَجَوْهَرِ النَّاطِرِينَ وَلَهُمَا حَسَنٌ وَمِنْهُ الزَّرِّيَابُ وَالصَّفَائِحُ الَّتِي تَكُونُ فِي سَقُوفِ الْمُلُوكِ وَعَلَيْهِ مَدَارُ الطَّابَعِ وَثَمَنٌ لِكُلِّ شَيْءٍ ثُمَّ هُوَ فَوْقَ الْفِضَّةِ مَعَ حَسَنِ الْفِضَّةِ وَكِرْمِهَا وَحَطَّهَا فِي الصَّدُورِ وَأَنَّهُ ثَمَنٌ لِكُلِّ مَبِيعٍ بِأَضْعَافٍ وَأَضْعَافٍ أَضْعَافٌ وَلَهُ الْمَرْجُوعُ وَقِلَّةُ النِّقْصَانِ وَالْأَرْضُ الَّتِي تَنْبَتُهُ وَيَسْلُمُ عَلَيْهَا تَحْرِيلُ الْفِضَّةِ إِلَى جَوْهَرِهَا فِي السَّنِينَ الْيَسِيرَةِ وَتَقْلِبُ الْحَدِيدِ إِلَى طَبْعِهَا فِي الْأَيَّامِ الْقَلِيلَةِ وَالطَّبِيخُ الَّذِي يَكُونُ فِي قُدُورِهِ أَغْذَى وَأَمْرَى وَأَصَحُّ فِي الْجَوْفِ وَأَطْيَبُ وَسُئِلَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ هـ عَنْ الْكَبْرِيتِ الْأَحْمَرِ فَقَالَ : هُوَ الذَّهَبُ وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " لَوْ أَنَّ لِي طَلَاعَ الْأَرْضِ ذَهَبًا " فَأَجْرَاهُ فِي ضَرْبِ الْأَمْثَالِ كُلِّ مُجَرِّى .

فَحَسَدَهُ سَهْلُ بْنُ هَارُونَ عَلَى مَا حَضَرَهُ مِنَ الْخُطَابَةِ وَالْبَلَاغَةِ فَقَالَ يَعْتَرِضُ عَلَيْهِ يَعِيبُ الذَّهَبَ وَيَفْضُلُ عَلَيْهِ الزَّجَاجَ : الذَّهَبُ مَخْلُوقٌ وَالزَّجَاجُ مَصْنُوعٌ وَإِنْ فَضَّلَ الذَّهَبَ بِالصَّلَاحِ وَفَضَلَ الزَّجَاجَ بِالصَّفَاءِ ثُمَّ الزَّجَاجُ مَعَ ذَلِكَ أَبْقَى عَلَى الدَّفْنِ وَالْغُرْقِ وَالزَّجَاجُ مَجْلُوعٌ وَنُورِيٌّ وَالذَّهَبُ مَنَاعٌ سَاتِرٌ وَالشَّرَابُ فِي الزَّجَاجِ أَحْسَنُ مِنْهُ فِي كُلِّ مَعْدَنٍ وَلَا يَفْقَدُ مَعَهُ وَجْهَهُ النَّدِيمُ وَلَا يُثْقَلُ الْيَدُ وَلَا يَرْتَفِعُ فِي السَّوْمِ وَاسْمُ الذَّهَبِ يُتَطَايَرُ مِنْهُ وَلَا يَتَفَاعَلُ بِهِ وَإِنْ سَقَطَ عَلَيْكَ قَتْلَاكَ وَإِنْ سَقَطَتْ عَلَيْهِ عَقَرَاكَ وَمَنْ لَوْمُهُ سُرْعَتُهُ إِلَى بَيْوتِ اللِّئَامِ وَمُلْكِهِمْ وَإِبْطَاؤُهُ عَنْ بَيْوتِ الْكِرَامِ وَمُلْكِهِمْ وَهُوَ فَاتِنٌ وَقَاتِلٌ لِمَنْ صَانَهُ وَهُوَ أَيْضًا مِنْ مَصَايِدِ إِبْلِيسَ

ولذلك قالوا : أهْلَكَ الرَّجَالَ الْأَحْمَرَانِ وَأَهْلَكَ النِّسَاءَ الْأَحْمَرَةَ وَقُدُّورَ الزَّجَاجِ
أَطْيَبَ مِنْ قُدُّورِ الذَّهَبِ وَهِيَ لَا تَصْدَأُ وَلَا يَتَدَاخَلُ تَحْتَ حَيْطَانِهَا رِيحُ الْغَمْرِ .
وَأَوْسَاخُ الْوَضَرِ وَإِنْ اتَّسَخَتْ فَالْمَاءُ وَحْدَهُ لَهَا جَلَاءٌ وَمَتَى غَسَلَتْ بِالْمَاءِ عَادَتْ جُدَدًا وَلَهَا
مَرْجُوعٌ حَسَنٌ وَهُوَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِالْمَاءِ وَصَنَعَتُهُ عَجِيبَةٌ وَصَنَاعَتُهُ أَعْجَبُ وَكَانَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَى
نَبِينَا وَعَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِذَا عَبَّ فِي الْإِنَاءِ كَلَلَحَتْ فِي وَجْهِهِ مَرَدَّةُ الْجَنِّ
وَالشَّيَاطِينِ فَعَلَّامُهُ [صَنَعَةُ الْقَوَارِيرِ فَحَسَمَ بِهَا عَنْ نَفْسِهِ تِلْكَ الْجَرَاءَةَ وَذَلِكَ التَّهْجِينُ وَمَنْ
كَرَعَ فِيهِ شَارِبُ مَاءٍ فَكَأَنَّهُ يَكْرَعُ فِي إِنَاءٍ مِنْ مَاءٍ وَهَوَاءٍ وَضِيَاءٍ وَمِرَّاتِهِ الْمَرْكَبَةُ فِي الْحَائِطِ]
ص 353 [أَضْوَأُ مِنْ مِرَّاتِ الْفُولَادِ وَالْمَصُّورِ فِيهَا أَبْيَنُ وَقَدْ تَقْدَحُ النَّارُ مِنْ قَنِينَةِ الزَّجَاجِ إِذَا
كَانَ فِيهَا مَاءٌ فَحَازُوا بِهَا عَيْنَ الشَّمْسِ لِأَنَّ طَبْعَ الْمَاءِ وَالزَّجَاجِ وَالْهَوَاءِ وَالشَّمْسِ مِنْ عُنْصُرٍ وَاحِدٍ
وَلَيْسَ فِي كُلِّ مَا يَدُورُ عَلَيْهِ الْفَلَكَ جَوْهَرٌ أَقْبَلُ لِكُلِّ صَبْغٍ وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَفَارِقَهُ حَتَّى كَانَ ذَلِكَ
الصَّبْغُ جَوْهَرِيَّةً فِيهِ مِنْهُ وَمَتَى سَقَطَ عَلَيْهِ ضِيَاءٌ .

أَنْقَذَهُ إِلَى الْجَانِبِ الْآخَرِ مِنَ الْهَوَاءِ وَأَعَارَهُ لَوْنَهُ وَإِنْ كَانَ الْجَامُ ذَا أَلْوَانٍ أَرَاكَ أَرْضَ
الْبَيْتِ أَحْسَنَ مِنْ وَشْمٍ صَدْعَاءَ وَمِنْ دِيْبَاجٍ تَسْتَرُ وَلَمْ يَتَّخِذِ النَّاسُ آنِيَةً لَشَرْبِ الشَّرَابِ أَجْمَعِ
لَمَّا يَرِيدُونَ مِنَ الشَّرَابِ مِنْهُ قَالَ [تَعَالَى : (قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ
حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا قَالَ : إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرِ) وَقَالَ تَعَالَى
: (وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابُ كَانَتْ قَوَارِيرِ قَوَارِيرِ مِنْ فِضَّةٍ) فَاشْتَقَّ لِلْفِضَّةِ اسْمًا
وَقَالَ النَّبِيُّ A لِلْحَادِي وَقَدْ عَنَفَ فِي سِيَاقِ طُعْنِهِ : يَا أَنْيْسَ ارْفُوقِي بِالْقَوَارِيرِ فَاشْتَقَّ
لِلنِّسَاءِ اسْمًا مِنْ أَسْمَائِهَا وَيَقُولُونَ : مَا فَلَانٌ إِلَّا قَارُورَةٌ عَلَى أَنَّهُ أَقْطَعَ مِنَ السِّيفِ وَأَحَدٌ مِنْ
الْمُوسَى وَإِذَا وَقَعَ شِعَاعُ الْمَصْبَاحِ عَلَى جَوْهَرِ الزَّجَاجِ صَارَ الزَّجَاجُ وَالْمَصْبَاحُ مَصْبَاحًا وَاحِدًا
وَرَدَّ الضِّيَاءُ كُلُّهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ وَاعْتَبَرُوا ذَلِكَ بِالشَّعَاعِ الَّذِي يَسْقُطُ فِي وَجْهِهِ الْمِرَّاتَةُ عَلَى
وَجْهِ الْمَاءِ وَعَلَى الزَّجَاجِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ يَتَضَاعَفُ نُورُهُ وَإِنْ كَانَ سَقُوطُهُ عَلَى عَيْنِ إِنْسَانٍ
أَعْشَارَ وَرَبَّمَا أَعْمَاهُ قَالَ [تَعَالَى : (- ا نُّورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا
مِصْبَاحٌ - الْآيَةُ) فَلِلزَّيْتِ فِي الزَّجَاجَةِ نُورٌ عَلَى نُورٍ وَضَوْءٌ مُتَضَاعَفٌ .

فَلَمْ يَبْقَ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ أَحَدٌ إِلَّا تَحِيرَ فِيهِ وَشَقَّ عَلَيْهِ مَا نَالَ مِنْ نَفْسِهِ بِهَذِهِ الْمُعَارِضَةِ
وَأَيَقَنُوا أَنَّهُ لَيْسَ دُونَ اللِّسَانِ حَاجِزٌ وَأَنَّهُ مَخْرَاقٌ يَذْهَبُ فِي كُلِّ فَنٍّ يَخِيلُ مَرَّةً وَيَكْذِبُ مَرَّةً وَيَهْجُو
مَرَّةً وَيَهْذِي مَرَّةً وَإِذَا صَحَّ تَهْذِيبُ الْعَقْلِ صَحَّ تَقْوِيمُ اللِّسَانِ